الفصل الثالث

سقوط الخلافة الإسلامية والشعر الذي نعيت به

سقوط الخلافة الإسلامية والشعر الذي نُعيت به

كانت الخلافة الإسلامية عبر القرون الطويلة مركزاً دينياً ودنيوياً على الرغم مما انتابها من ضعف وفتور في بعض الفترات الزمنية .

وكان المسلمون ينظرون إلى الخليفة نظرة ولاء وطاعة . ويرون أنه مسؤول عن رعاية شؤونهم ونجدة ضعيفهم وإسعاف منكوبهم .

وكانت الخلافة رمز الرابطة الإسلامية والأخوة الإيمانية التي تجمع المسلمين وتوحد صفوفهم في شتّى بقاع الأرض . ولقد ظلت دولة الخلافة الإسلامية عبر القرون الطويلة تتسع وتقوى أحياناً وتنكمش وتضعف أحياناً أخرى .

وحين جاء السلطان عبد الحميد العثماني كانت الخلافة ضعيفة والمسلمون مشتتين . فحاول النهوض بها وتقوية شأنها ولكن محاولته جاءت متأخرة ؛ ذلك لأنه تولى الأمر بعد أن وهت الخلافة ، وتمكنت القوى العالمية من افتراس بعض بلاد المسلمين واتفقت على إزالة الخلافة .

ولقد استطاع السلطان عبد الحميد العثماني ـ رحمه الله ـ أن يتحدّى تلك القوى ويصارعها فترة أربت على ثلاثين عاماً ثم انتهت بهزيمته وخلعه .

ولقد جاء من بعده خلفاء رمزيون لا حول لهم ولا قوة وأصبح الأمر في أيدي أعضاء حزب الاتحاد والترقي الذين لم يبقوا على الخلافة إلاّ لكسب ودّ المسلمين وعطفهم .

ثم جاء مصطفى كمال ، وتولى الزعامة في تركيا فأبقى على الخلافة أول الأمر وتظاهر بالتدين ، فكان يصلي في مقدمة الجنود البسطاء ، ويتملق العلماء ويعطف عليهم ، ويستغلهم لشحن النفوس ، ودفعها إلى الاستشهاد لا في سبيل الله كما كان يزعم ، وإنما في سبيل تحقيق أغراضه [١] .

ولقد أثر مصطفى كمال في الناس « فالنغمات الإسلامية التي كان الناس يسمعونها منه دائماً ولا يعلمون ما يطوي في قلبه من دونها حملتهم على حبه والثناء عليه بإسراف ، من ذلك أنه كان يقول دائماً في خطبه : إخواننا العرب إخواننا العرب ، إخواننا المصريون إخواننا المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها .

---

(١) الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام : ص ٩٠ .

وذكر الأمير شكيب أرسلان أن مصطفى كمال قال له ذات مرة : لا بد أن نسترجع القدس إن شاء الله وهذا محقق وإنما أقول إن شاء الله كمسلم لا أقول إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » [١] .

وبعد أن قوي شأنه وفُتِن الناس به بدأ في تنفيذ ما أُملي عليه من قبل أسياده النصارى واليهود فأعلن فصل الدين عن الدولة وتطاول على الخليفة العثماني وحيد الدين فعزله عن السلطة وعين الأمير عبد المجيد بدلاً منه . يقول مصطفى صبري شيخ الإسلام في تركيا الذي فر إلى مصر : « تساهل الإنجليز مع مصطفى كمال ليجعلوا منه بطلاً في حين تشددوا في معاملة الخليفة وحيد الدين حتى أعجزوه وذلك لتعظيم الافتتان بكمال في أبصار المسلمين وبصائرهم » [٢] .

ثم أعلن مصطفى كمال قيام الجمهورية التركية واتخذ أنقرة عاصمة لجمهوريته بدلاً من الآستانة مركز الخلفاء العثمانيين ، وأبقى على الخلافة وترك الناس في حيرة من أمرهم ما بين مؤيد لإجراءاته هذه ومعارض لها .

ثم حسم مصطفى كمال هذا الاضطراب وهذه الحيرة بأن فاجأ الناس بإلغاء الخلافة الإسلامية ، وطرد الخليفة العثماني عبد المجيد وأسرته ، وأعلن علمانية الدولة ، وسلك سياسة المراحل فسلخ تركيا من دينها مرحلة بعد مرحلة [٣] وأصبح العالم الإسلامي لأول مرة منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . بلا خلافة .

هذا ولقد أنكر المسلمون على مصطفى كمال إلغاءه للخلافة ونادوا بإحيائها ودعوا إلى اختيار خليفة لهم ، وعقدوا مؤتمراً إسلامياً لهذا الغرض في مصر حضره عدد من علماء الأقطار الإسلامية برئاسة شيخ الأزهر وذلك في شهر شعبان سنة ١٣٤٢ هـ الموافق ١٩٢٤ م . وقد أفتى هذا المؤتمر ببطلان بيعة عبد المجيد الذي كان الكماليون قد جاءوا به قبل إلغائهم للخلافة وجردوه من السلطة . ودعا المؤتمر ممثلي الأقطار الإسلامية إلى الاجتماع بالقاهرة مرة أخرى في العام القادم ، وحُدد شهر شعبان موعداً لانعقاده وذلك للبت فيمن يجب أن تسند إليه الخلافة الإسلامية .

ولكن هذا المؤتمر أجل مرة بعد أخرى ولم يعقد إلا في أول ذي القعدة سنة ١٣٤٤ هـ الموافق ١٩٢٦ م . وكان اجتماعاً مخفقاً لم يسفر عن شيء ، وذلك لتنافس كل من الملك

---

(١) شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ٢١٥ .

(٢) تاريخ الدولة العثمانية : ص ٢٨٩ .

(٣) انظر مقالا للأمير شكيب أرسلان بصحيفة الفتح : العدد ٥٨ (٢١ صفر سنة ١٣٤٦ هـ) .

فؤاد ، والحسين [١] بن علي وأمان الله خان ملك الأفغان على هذا اللقب . كما كان الإنجليز من وراء إفساده فهم يعارضون قيام الخلافة الإسلامية ! كيف لا وهم الساعون لهدمها ؟ .

يقول لورانس أحد الوزراء الإنجليز : « علينا أن ندفع بالغرب لانتزاع حقوقه من تركيا بطريق العنف ... لأننا بهذا نقضي على خطر الإسلام وندفع به (أي بالإسلام) لإعلان الحرب على نفسه وبذلك نمزقه من القلب ؛ إذ ينهض في مثل هذا الصراع خليفة في تركيا وخليفة في العالم العربي ويخوض الخليفتان حرباً دينية وبذلك يقضى على خطر الخلافة الإسلامية بصورة نهائية ... » [٢] .

هذا ولقد حذر شوقي المسلمين من الشريف حسين الذي حاربهم مع الإنجليز ثم أظهر رغبته في الخلافة فقال : [٣]

لا تبـذلوا بُـرَدَ النبـي لعـاجز ... عُزُل يـدافع دونـه بالـراح [٤]
بالأمس أَوْهَى المسلمـين جراحـة ... واليوم مدَّ لهم يـد الجـرّاح

ثم خوف المسلمين من الفتنة التي يوشك أن يقع فيها أمراؤهم حين يتنافسون على منصب الخلافة ويتنازعون عليها بعد أن تنحى الأتراك عنها فقال :

فَلْتَسْمَعُنَّ بكـل أرض داعيـاً ... يدعو إلى (الكذاب) أو لسجاح [٥]
ولْتَشْهَدُنَّ بكـل أرض فتنـةً ... فيها يبـاع الدين بيـع سَمَاح
يُفتي عـلى ذهب المُعـزّ وسيفِـه ... وهوى النفوس وحقْدِها الملحاحِ [٦]

وبالمقـابل وجد من الشعراء من دعـا المسلمين إلى الاجتماع حول الحسين بن علي وفي

---

(١) المنار صحيفة القبلة التي كانت تصدر في الحجاز آنذاك حيث قادت الدعوة إلى مبايعة الحسين بن علي وهاجمت الكماليين ، ونشرت برقيات المبايعة له . وأذاعت بلاغه للعالم أجمع وخاصة الأعداد : ٧٧٠ ـ ٧٧١ ـ ٧٧٢ ـ ٧٧٣ ـ ٧٧٤ .

(٢) تاريخ الدولة العثمانية : ص ٢٦٢ .

(٣) الشوقيات : جزء ١ ، ص ١٠٩ .

(٤) العاجز : هو الشريف حسين ـ والراح : جمع راحة وهي بطن الكف .

(٥) الكذاب : هو مسيلمة كذاب اليمامة ـ سجاح : امرأة كانت ادعت النبوة .

(٦) ذهب المعز وسيفه : هو ما كان يبذله المعز لدين الله الفاطمي في مصر من مال لمن أطاعوه وعقاب لمن خالفوه .

مقدمتهم الشاعر أبو الفضل الوليد الذي كان نصرانياً فأسلم فقد حضّ المسلمين على الوحدة ودعاهم لمبايعة الحسين في قصيدة طويلة قال فيها : [١]

وما قوة الإسلام إلا بـــدولـــة ... خلافيـــة بـــالمسلمين قويـــة
فقل لجميع المسلمـــين تجمعـوا ... وصونوا وقـار الدولة الهاشميـة
ألا يـا بني الإسلام كونوا عصابة ... فلا قـوة إلا بحب وألفـــة
ولا قـدرة بعد الشتات على العِدَا ... بغير اتحـاد فيـه توحيـد غاية

ثم أمرهم أن يأخذوا بأسباب القوة ويوحدوا صفوفهم فقال :

خذوا من أعاديكم وعنهم سلاحهم ... به تكشفوا أسرار فـن وصنعـة
فعبوا لهم طامي الضفاف عرمرما ... كتـائبه للحرب والسلم صُفّت
ورصّوا كبنيان فخيمٍ صفوفـــه ... لكي تُرهبوا الأعداء من غير حملة
فلا منعـــة إلا بجـيش منظـــم ... يجمع أبنـــاء البلاد كـإخوة

وبعد أن أصبحت الخلافة أثراً بعد عين . وأخفقت الجهود المبذولة لإحيائها شعرت الصحف الإسلامية بالنكبة التي حلت بالمسلمين لفقدها وطفقت تكتب المقالات التي تشيد بها وتحض عليها . من ذلك ما نشرته صحيفة الفتح لصاحبها محب الدين الخطيب حيث قالت [٢] : الخلافة الإسلامية هي الركن الاجتماعي السياسي المدني في الدين الإسلامي . وهي الظل الذي يستظل به كل مسلم وإن نأت داره وبعُد مزاره .

الخلافة الإسلامية هي رمز الوَحْدَة الإسلامية وحجر الزاوية في بناء صرح القوة للمسلمين .

الخلافة الإسلامية هي التي مدت رواق الإسلام من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب .

الخلافة الإسلامية هي التي جعلت فتوحات المسلمين معجزة التاريخ وأعجوبة الحوادث الكونية .

الخلافة الإسلامية هي التي أخضعت أعتى الملوك وأقواهم . حتى في إبان ضعفها وتضعضعها .

---

(١) ديوان أبي الفضل الوليد : ص ٣٦٥ .

(٢) صحيفة الفتح : العدد ٢١٣ (٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٤٩ هـ) .

الخلافة الإسلامية هي عروة الجامعة التي نسعى إليها جاهدين ...

ولقد ألفت الكتب في الدفاع عن الخلافة وبيان وجوبها في الإسلام والإشادة بمحاسنها . وقامت معركة بين أنصارها وخصومها . ومن أهم الكتب التي ألفت في الدفاع عنها وبيان أهميتها كتاب (النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة) لمصطفى صبري شيخ الإسلام في تركيا الذي فر من الكماليين . وكتاب « الخلافة أو الإمامة العظمى » لمحمد رشيد رضا . وكتاب « حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الإسلام » لمحمد حبيب العبيدي مفتي الديار الموصلية .

أما الكتب التي أيدت مصطفى كمال في إلغائه الخلافة فأخطرها كتاب « الإسلام وأصول الحكم » لعلي عبد الرزاق حيث قرر فيه أنه لا أصل للخلافة في الشريعة الإسلامية .

وكتاب « الخلافة وسلطة الأمة » لمؤلف مجهول . وقد ترجمه إلى العربية عن الأصل التركي عبد الغني سني .

هذا ولقد تناول الدكتور محمد محمد حسين هذه الكتب ـ عدا كتاب العبيدي ـ بالتفصيل والتحليل في كتابه الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر [١] .

وكان الأمير شكيب أرسلان أحد الذين تحدثوا عن أهمية الخلافة وأثرها في وحدة المسلمين حيث قال : « كانت الخلافة أحسن علاقة جامعة بين المسلمين . وكان أربعمائة مليون مسلم في العالم يتولون حكومة تركيا بحجة أنها دولة الخلافة فجاء مصطفى كمال وقطع هذه العلاقة بين تركيا والعالم الإسلامي . وزعم أنه لا يلوي على علاقة غير علاقة الترك خاصة . وأن سائر المسلمين والأجانب في نظره سواء . وهو أمر مخالف للحقيقة وللواقع وللمصلحة » .

وذكر الأمير شكيب أن أنور [٢] قال له : « إن الأتراك الذين في روسيا لا يعطفون علينا نحن أتراك تركيا بسبب أننا أتراك بل بسبب أننا مسلمون . وهؤلاء الياقوت الذين هم في سيبيريا هم ترك في المحتد مثلنا ولكن نظراً لكونهم وثنيين لا يعطفون علينا ولا نعطف عليهم ولا يعرفوننا ولا نعرفهم » [٣]

هذا ولقد انبرى الشعراء على اختلاف بيئاتهم يعلنون على الملأ اعتذارهم عن مدح مصطفى كمال بالأمس . ويرثون الخلافة أبلغ رثاء وأوفاه . ويدعون المسلمين إلى اليقظة والحذر مما يدبره لهم أعداء الإسلام .

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : جزء ٢ . ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) أنور : هو الذي تولى رئاسة الحكومة التركية قبل مصطفى كمال .

(٣) شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ٢١٤ .

فنظم شوقي قصيدته الحائية التي رثى فيها الخلافة . ولام مصطفى كمال واعتذر عن مدحه له وصور فيها أحزانه على ذلك الخطب . وتخيل الخلافة عروساً ماتت فجأة فتبدل العرس مأتماً . والفرح حزناً فقال : (١)

عادت أغاني العرس رجع نواحي ... ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت في ليل الزفاف بثوبه ... ودفنت عند تبلج الإصباح
شيعت من هلع بعبرة ضاحك ... في كل ناحية وسكرة صاح

ثم صور حالة الأقطار الإسلامية وقد هالها الأمر وأمضها الخطب فلبست على الخلافة ثوب الحزن . وأقامت لفقدها المآتم فقال :

ضجت عليك مآذن ومنابر ... وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينة ... تبكي عليك بمدمع سحّاح (٢)
والشام تسأل والعراق وفارس ... أمحا من الأرض الخلافة ماح ؟
وأتت لك الجمع الجلائل مأتماً ... فقعدن فيه مقاعد الأنواح (٣)

ولقد أبدى الشاعر عجبه من هدم هذا المجد العظيم بهذه السرعة . ونبذ تلك الرابطة الوثيقة التي تجمع القلوب وتوحد الصفوف فقال :

حسَبٌ أتى طول الليالي دونه ... قد طاح بين عشية وصباح (٤)
وعلاقة فُصمت عُرى أسبابها ... كانت أبَرَّ علائق الأرواح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم ... في كل غُدْوَة جمعة ورواح

ثم هاجم مصطفى كمال ونعته بالعبث والضلال والكفر فقال :

بكت الصلاة . وتلك فتنة عابث ... بالشرع عربيد القضاء وقاح (٥)

---

(١) الشوقيات : جزء ١ . ص ١٠٦ ـ ١٠٩ .
(٢) الواهة : الحزينة أو التي ذهب عقلها حزناً ـ سحاح : كثير السح . وهو سيلان الماء من أعلى إلى أسفل .
(٣) الجمع : واحدتها جمعة . وهي الصلاة المفروضة بهذا الاسم ـ الأنواح : النائحات .
(٤) طاح : ذهب .
(٥) تعربيد : الشرير والكثير العربدة . والعربدة سوء الخلق من السكر ـ الوقاح : ذو الوقاحة وهي قلة الحياء .

أفتى خزعبلــة وقــال ضــلالــة وأتى بكفــر في البــلاد بــــراح [١]

وتابع الشاعر الهجوم على مصطفى كمال في عنف وقوة واعتذر عن مدحه بالأمس فمن أجل الإسلام وحده مدحه يومذاك . ومن أجل الإسلام وحده يهاجمه اليوم ولا غرو في ذلك فإن الحق أحق أن يتبع .

أستغفر الأخلاق لست بجــاحد من كنت أدفــع دونــه وأُلاحــي
مالي أطوقه المــلام وطــالمــا قلدته المــأثور مــن أمــداحي ؟
الحق أولى مــن وليّــك حرمــةً وأحق منك بنــصرة وكفــاح
فامدح على الحق الرجال ولُمْهُمُو أو خلِّ عنك مواقفَ النُّصَّــاح

ثم دعا الشاعر أرباب العلم والفهم إلى إسداء النصيحة لمصطفى كمال بعد أن أضله الغرور فقال :

أدوا إلى الغازي النصيحــة ينتصح إن الجـواد يثــوب بعـد جمــــاح [٢]
إن الغرور سقى الــرئيس براحِـه كيف احتيالك في صريع الراح ؟
نقل الشرائع والعقائد والقُــرى والنــاسَ نقــل كتــائب في السّاح [٣]
غرته طــاعاتُ الجُموع ودولــةٌ وجد السوادُ لهــا هوى المُـرتــاح

ولقد ظل الشاعر مخلصاً للخلافة محباً لها طول حياته لأنها العروة الوثقى التي تجمع المسلمين . ولذا مدح الكماليين ودافع عنهم حين ظن بهم خيراً للخلافة ولما رأى انحرافهم هاجمهم وقلاهم فقال :

مــن قــائلٌ للمسلمين مقالــة لم يوحهــا غير النصيحــة واح
عهد الخلافــة فيَّ أول ذائــد عــن حــوضهــا بيراعــة نَضَّــاح [٤]

---

(١) خزعبلة : الفكاهة والمزاح ـ جاء بالكفر براحا : أي بينا وقيل جهارا .
(٢) الغازي : مصطفى كمال وهو المراد بالرئيس أيضاً في البيت الثاني .
(٣) ساح : جمع ساحة وهي ساحة الحرب .
(٤) ذائد : الحامي الدافع ـ النضاح : الدافع أيضا .

حب لذات الله كان . ولم يـــزل وهوى لـذات الحق والإصلاح
إني أنا المصباح لست بضائـــع حتى أكونَ فراشة المصبـــــاح

أما الشاعر التونسي محمد الشاذلي الخزنه دار فيعلن أن إلغاء الخلافة أمر لا ترضاه الشعوب الإسلامية من تركية وعربية فيقول : (١)

لا الترك ترضى بما أجرت حكومتها في المسلمين وحاشاها ولا العرب

وكان الشاعر يرجو الخير من حركة الكماليين لكن هذه الحركة قلبت الخير شراً فيقول :

كنا نؤمل منهـا الخير فـانقلبت تلك الأماني ولّما يسكن الغضب
هذا الزمان أرانا مـن حوادثـه شتى العجائب حتى ينقضي العجب

ثم ندد الشاعر بالكماليين وبادعائهم أن الخلافة عبء ثقيل . وسفّه صنيعهم . ونوّه بفضل الخلافة عليهم فقال :

قالوا الخلافة عبء قد أضر بهم لولا الخلافة ما نالوا الذي رغبوا
ألقوا بها بين أيدينا مدحرجـــة واستصغروا الفعلة الشنعاء وانقلبوا

وأنشأ محمد الخضر حسين قصيدة ندب فيها الخلافة . وتساءل عن أهلها لم هجروها بعد أن عَزُّوا بها دهراً طويلاً فقال : (٢)

مـا خَطْبُ قوم طالمـا وصلوكِ واعتّز باسمك عرشهم هجـــروك ؟
حرسوك أحقاباً وحلّق صيتهـــم في الخـافقين لأنهـــم حـرسوك (٣)

ثم طفق يخلع على الخلافة جليل الصفات فقال :

(١) ديوان الخزنة دار : جزء ١ . ص ٢٤١ .
(٢) خواطر الحياة : ص ١٢٧ ـ ١٢٩ .
(٣) الأحقاب : واحدها حقب . ومن معانيه الدهر والسنون .

كنتِ الوقار على وجوه غُزاتهم والأمن إن نظروا بعين ضحوك
كنتِ البطولة تزدري نار الوغى والنصر يعقد بالقنا المشبوك [١]
ما زلت سمط قلادة خرزاتُها أممٌ بأغلى فِدية تفديك [٢]

ثم وصف الشاعر دستور الخلافة الذي سوى الملك بالمملوك والفتى بالصعلوك فقال :

تصبو إلى دستورك الأحرارُ إذ يضع المليك بجانب المملوك [٣]
وزن الحقوق فما الثريُّ براجح في حكمه يوماً على الصعلوك

ثم أنّب الشاعر مصطفى كمال على فعلته التي فعلها فقال :

ناطوا به أمل النهوض بدولة رمت الثرى بجناحها المفكوك
نهض الزعيم وما رعى عهد التي لولا اسمها ما صال صول ملوك

ثم حذر من بطش المسلمين به ونقمتهم عليه فقال :

والقوم قوم « محمد » إن زُحزحوا عن هديه اقتحموا شعاب النّوك [٤]
وهُداةُ حصن لا أريكةُ مترف وزئير ليث لا صياح ديوك

ولقد شرع « عبد المطلب » بنظم قصيدة في تمجيد الأتراك والإشادة بانتصارهم على اليونانيين وجعل مطلعها :

هذا مقامك شاعر الإسلام فقف القريض على أجل مقام

لكنه فوجئ بعدوانهم على الخلافة وإلغائهم لها فجمدت قريحته وتوقف قلمه عند البيت السادس وقد أعلن ذلك فقال : « وكان السبب في وقوفي ، جمود القريحة فجأة .

---

(١) المشبوك : المخلوط بعضه ببعض . يريد اشتباك الرماح واتصالها من كثرتها .
(٢) سمط القلادة : الخيط الذي ينظم فيه خرزاتها .
(٣) دستورك : الشرع الإسلامي .
(٤) النوك : جمع أنوك . وهو الضعيف العقل .

إذ فاجأتنا أخبار انحراف أولئك النفر »[١] .

ونظم أبو الفضل الوليد قصيدة رثى فيها الخلافة وبكى بلادَ المسلمين التي احتلها الحلفاء فقال : [٢]

الشام يُقهر والعـراق يُضـام ... فـاليوم لا عـربٌ ولا إسـلام
أين العروبةُ والخلافةُ منهمـا ... والمسلمـون بـلادهم أقسـام
لِبني أميـة أو بـني العبـاس في ... تلك الربوع أمانـةٌ وذمـام
ذهبت خلافتُهم وضـاع سريرُها ... فبكـى عليهـا منبرٌ وحُسام
إن الخلافة بـان عنهـا ربُّهـا ... فـالمؤمنون جميعهـم أيتـام

ثم تساءل عما حَلَّ بديار المسلمين بعد أن استولى عليها الأجنبي المستعمر واستنهض الهمم لإنقاذها فقال :

مـا حـال مكـة والمـدينة بعدما ... سقطت دمشق وحُرِّم الإحرام ؟
هل بعـد غزوتهـا ونكبة أهلِهـا ... للمسلمـين سلامـةٌ وسـلام
أو هل تـصحّ خلافـةٌ وإمـامة ... حيث الفرنجة واليهود قيـام ؟
الشام نهب والعـراق غنيمـة ... وعليهمـا يتكـالب الأقـوام
والحق يصرخ قـائلاً في ضعفـه ... أهل البلاد العـرب لا الأعجام

ثم ندب الشاعر الجامع الأموي والمسجد الأقصى والخلفاء الأوائل فقال :

الجـامع الأمويُّ فيـه جنـازة ... والمسجد الأقصى عليـه ظلام
ومضـاجع الخلفـاء زال وقـارها ... والأوليـاء قُبـورهـم أردام
تلك العظام أكاد أسمع خشفهـا ... ولو أنها نطقت لطـال مـلام
وقف العلوج بها وداسوا تربهـا ... ولأهلهـا فوق النجوم مقـام

ولقد عجب الشاعر أشد العجب من سكوت المسلمين عَلَىٰ ما وقع من خطب فقال :

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٢٥٣ .
(٢) ديوان أبي الفضل الوليد : ص ١٤٦

فعجبت كيف الأرض لم تخسف ولم ... ينْهدَّ يَـذْبُل خَشْيةً وشَمَـــام
والله لو نظروا إليهـا خشّعـــاً ... من فرسخين لقلت ذاك حـــرام
غضبت له الأمـلاك فهـي كظيمة ... واسودَّت الأفلاك فهـي قتـام
وعلى الوجوه من الكـآبة سدفـة ... وعلى الجفـون من الدّموع دمـام

أما محمود غنيم فنظم قصيدة رائعة افتتحها ببكاء الخلافة التي درست فقال : [١]

عهد الخلافة في البسفور قد درست ... آثـاره طيب الـرحمن مثـواه
مـا للخلافـة ذنب عند شانئهـا ... قـد يظلم السيف من خانته كفاه [٢]

ثم أشاد برابطة الإسلام التي تجمع الأفئدة وتوحد القلوب فقال :

إني لأعتـبر الإسلام جـامعـة ... للشرق لا محض ديـن سنه الله
أرواحنا تتلاقـى فيـه خافقـة ... كالنمل إذ يتـلاقـى في خـلاياه
دستوره الوحي والمختـارُ عاهلُه ... والمسلمون ـ وإن شتوا ـ رعايـاه

ثم سأل الله أن يهبَ المسلمين الإمام الصالح الذي يصون الإسلام ويرعى بنيه فقال :

لا هُمَّ قد أصبحت أهواؤنا شيعـاً ... فـامـنن علينـا بـراع أنت تـرضـاه [٣]
راع يعيـد إلى الإسلام سيرتـــه ... يـرعى بنيـه وعـين الله ترعـاه

أما أحمد محرم فنظم قصيدة من روائع قصائده صور فيها أحزانه وأشجانه عـلى فقد الخلافة ، وقد افتتحها بمسألة (فروق) فقال : [٤]

أعن خطب الخلافة تسألينـــا ؟ ... أجيبي يا (فروق) فتى حزينـا
هو العرش الذي استعصمتِ منه ... بركن الدهر . واستعليت حينـا

---

(١) صرخة في واد (ديوان محمود غنيم) : ص ٧٨ ـ ٨٢ .
(٢) شانئها : مبغضها .
(٣) صبح القوم شيعاً : تفرقوا .
(٤) ديوان أحمد محرم : مخطوط .

ثم طفق يبكي ويندب قوة الخلافة التي لا تقهر وجاهها الذي لا يغلب فقال :

فـأين البـأس يقتحم المنـايـا ؟ ... ويلتهم الكتائب والحصـونـا
وأين الجـاه يعمر كـلَّ جـاه ... وإن جعل السمَاك له سفينـا ؟
تـدفّق يـأخذ الأقطـار طُـرّاً ... وينتظـم القيـاصر أجمعينـا

ثم انتقل إلى البكاء على الخلفاء بعد أن بكى الخلافة فقال :

مضى الخلفاء عنك فـأين حلوا ؟ ... وكيف بقيت وحدك ؟ خبرينـا ؟
ولـو أُوتيت بِـرّاً أو وفـاءً ... إذن لظعنت إثـر الظاعنينـا [١]

ولم ينس الشاعر قصر الخلافة الذي تبدل عزه ذلاً . وقوته ضعفاً ونوره ظلاماً فقال :

أيلـدز مـا دهـاك ؟ وأيُّ رام ... رمـاك ، فَهَـدَّ سؤددك المكينـا ؟ [٢]
خفضت له الجناح ، وكنت قدما ... حِمى الخلفـاء يـأبى أن يدينـا [٣]
وجلّلك الظـلام وكنت نـوراً ... يفيض عـلى شعـوب المسلمينـا

ثم هاجم الشاعر السياسة التي تدوس الحرمات لتحقيق الأطمـاع . وتختلق الأعذار لبلوغ الغايات . وتتلون تلون الحرباء فقال :

ولم أر كـالسّياسة في أذاهـا ... وفي أعـذارها تُزجي مئينـا
تغير على الأسود ، فتحتـويهـا ... وتزعـم أنهـا تحمي العرينـا
تريـد فتخلق الأصبـاغ شتّـى ... وتبتـدع الطرائـق والفنونـا
وتتخـذ الـدّم المسفـوك وِرداً ... تظـنّ زعافَـه المـاء المعينـا [٤]
أداة الغدر ، ما حفظت ذمامـاً ... ولا احترمت خليطـاً أو قرينـا [٥]

---

(١) ظعن : ذهب وسار .

(٢) يلدز : هو قصر السلطان العثماني في استانبول .

(٣) يدينا : يذل .

(٤) الورد : الماء الذي ترد عليه ـ الزعاف : السم القاتل .

(٥) الخليط : المخالط كجليس ومجالس ـ القرين : الصاحب .

ثم أهاب الشاعر بالعثمانيين أن يصبروا على ما أصابهم ويتحلوا بالإيمان فقال :

(بني عثمان) إن جزعا . فحقٌّ وإن صبراً . فخير الصابرينا
أعِدُّوا للنوائب ما استطعتم من الإيمان . وادّرعوا اليقينا

ثم عزّى الشاعر نفسه على ما حدث ؛ فالخلافة التي ألغيت لم تكن إلاّ شبحاً هزيلاً بعد أن خذلها المسلمون وتحالف عليها مع الأجنبي بعض الطامعين فقال :

وما نفع (الخلافة) حين تُمسي حديثَ خُرافةٍ للهازلينا ؟
ثبوت تتجرّع الآلام شتّى على أيدي الدُّهاة الماكرينا [1]

ثم عاد الشاعر إلى التحسر على الخلافة التي ظلت موئلاً للمسلمين إلى أن أصابها الضر على أيديهم ونالها الأذى منهم فقال :

تغيث المسلمين إذا استغاثوا وتنصرهم على المستعمرينا
فلما جَدَّ جِدُّ الحرب كانوا قُوى الأعداء ترمي الناصرينا
منعنا الظُّلْم أن يطغى عليهم فخانونا . وكانوا الظالمينا
نُصاب لأجلهم . ونُصاب منهم فإن تعجب . فذلك ما لقينا

وهاجمت صحيفة الفتح المصرية مصطفى كمال وأخذت تنشر تباعاً أنباء محاربته للإسلام وهدمه لمعالمه في تركيا . وتوالت مقالاتها في فضيحة الكماليين وتحذير المسلمين منهم

وكانت هذه الصحيفة قد أوردت في جملة ما أوردته عن فساد مصطفى كمال أنه ألقى القرآن الكريم ذات يوم من يده على الأرض وقال : [2] « إن ارتقاء الشعوب ـ أي مهارتها في الرقص واحتساء الوسكي وأكل لحم الخنزير والتقدم في الموبقات ـ لا يصلح أن يقيد بقواعد وقوانين سُنَّتْ في العصور الغابرة » .

وأشارت المجلة إلى أنه حوَّل قصر الخلافة « يلدز » إلى خمّارة وبؤرة فساد كبيرة

(١) ثبوت : أقامت .
(٢) صحيفة الفتح : العدد ٦٩ (٩ جمادى الأولى سنة ١٣٤٦ هـ) .
(٣) صحيفة الفتح : العدد ٦٣ (٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٤٦ هـ) .

يديرها إيطالي من كبار الاخصائيين في الموبقات [٣] ! ولم يرع حرمة هذا القصر الذي كان محط أنظار المسلمين ! !

ونشرت المجلة نفسها في عددها السادس والثمانين [١] مقالاً حزيناً في ذكرى إلغاء الخلافة الإسلامية هاجم فيه الكاتب مصطفى كمال فقال : (قلبي اليوم ما أحزنه . وبالي اليوم ما أكسفه ! كل الجرائد نشرت خبر قرار حزب الشعب إلغاء الخلافة وإلغاء الأوقاف وإخراج وزير الشريعة من مجلس الوزراء .

أليس هذا من عجائب العصر؟ مصطفى كمال الذي كنا نشيد باسمه وندعو له ونبارك عليه ونرجوه لرفعة الإسلام وإعزازه يفعل هكذا بالإسلام . ويهزأ هكذا بعواطف المسلمين ! اللّهم لا حول ولا قوة إلا بك . أنت الله مالك الملك . قلوب عبادك بيدك . ونواصيهم بيمينك ومصيرهم جميعاً إليك .

والله ما حارب الجندي الأناضولي إلا بدافع الدين الإسلامي . ولولا جامعة هذا الدين والله ما نصره الهنود والأفغان . ولا دعا له المصريون .

ولولا ثورة الهنود غيرة على هذه الخلافة التي خلع مصطفى كمال طوقها . ولوى بيده عنقها ما رأى مصطفى كمال الفوز الذي رآه . ولا نال المركز الذي ناله .

أيستهين مصطفى كمال هكذا بعواطف المسلمين ويجعلهم مُثلة وسخرية في أعين أنفسهم إن لم يكن في أعين أعدائهم ؟ لقد كان بالأمس يهتف باسمه الصبية ويرجوه العامة . وتدعو له العجائز ، أما اليوم فقد انقلب الدعاء له دعاء عليه والثناء عليه قدحاً فيه . ورجاء المسلمين فيه غمّاً وأسى وحنقاً .

لقد كانت بعض الألسنة تتحدث بأن الرجل يشرب الخمر فكانت القلوب تأبى التصديق . وكان بعض الناس يظن فيه وفي زمرته اللادينية ، فكانت النفوس تسرع جازمة إلى التكذيب ، ولكن كأن حديث القوم كان حقّاً . ونذير الخطر كان صدقاً .

ولعمري ما أظن إلا أن ذلك الرجل ومن معه كانوا مبيتين ذلك حين قاموا بحركتهم الأولى ضد وحيد الدين .

ولعمري لقد كان في بعض ما نطقوا به من وجوب التفرنج . وما فعلوه من إباحة الخمر بعد منعها . وإكراههم النساء على مخالطة الرجال ورفع الحواجز بين مجالس النساء ومجالس غير النساء في عربات الترام ، لقد كان في ذلك كله . وفي سحب مصطفى كمال زوجته وراءه في كل مجلس دليل على نفس الرجل ونفس من معه . ولكن عقول البشر لا

(١) صدر هذا العدد في ٩ رمضان سنة ١٣٤٦ هـ .

تصدق بالشر إلا مكرهة . والنفوس تدافع التسليم بانهيار آمالها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . فيها قد كشف الرجل عن نفسه فظهرت خبيئته فما عسى أن يفعل المسلمون الآن ؟

اللهم إن الإسلام دينك . والمسلمين عبادك .

اللّهم فلا تدع دينك من غير ناصر ولا تدع عبادك يلعب بهم أولو الأهواء ويوردونهم مو رد الهلكة .

اللهم واهد المسلمين إلى دينك ودين نبيك الكريم وصحبه . وقيض لهم من يحملهم عليه لا من يصرفهم عنه . واكف الإسلام شر أعدائه من أهله وغير أهله فإنه لا يقدر على دفع البلاء سواك) .

ويقرر أحد الضباط الأتراك الذين رافقوا مصطفى كمال في حروبه ولازموه أنه كان ماسونياً . وأنه حين قام بإغلاق المحافل الماسونية كان ذلك منه ذراً للرماد في العيون . [١]

ولقد أشادت دائرة المعارف الماسونية بمصطفى كمال حيث جاء فيها أنه (الأخ العظيم الذي أفاد الأمة . فقد أبطل السلطنة وألغى الخلافة . وأزال المحاكم الشرعية . وألغى دين الدولة الإسلام . كما ألغى وزارة الأوقاف ... أليس هذا الإصلاح هو ما تبتغيه الماسونية في كل أمة ناهضة ... ؟ فمن يماثل أتاتورك من رجالات الماسون سابقاً ولاحقاً ... ؟ [٢]

هذا ولقد نشرت صحيفة الفتح عدداً من القصائد في غرور الكماليين ومصيبة الناس بهم بعث بها إلى الصحيفة بعض قرائها في سائر الوطن العربي ومن تلك القصائد الأبيات التالية لمحمد الباقر العلوي من حضرموت : [٣]

يـا ساكـني الـدنيا انظـروا ... شمس الظهـيرة لا تـوارى
الـترك قـد أضحوا عـلى ... أحيـاء أهـل الأرض عـارا
في غـيهم يتخبطـو ... ن كـأنهم صرعـى سكـارى
لا مسلمـين ولا يهـو ... د ولا مجـوس ولا نصـارى

وذكرت هذه الصحيفة في عدد آخر تشطيراً لهذه الأبيات لشاعر من شعراء الشام هاجم فيها الكماليين ، ووصفهم بالفسق . ونعتهم بالفجور والضلال فقال : [٤]

---

(١) الرجل الصنم : ص ٤٩٢ .
(٢) الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام : ص ٩٦ .
(٣) صحيفة الفتح : العدد ١١٧ (٢٧ ربيع الثاني سنة ١٣٤٧ هـ) .
(٤) صحيفة الفتح : العدد ١٢١ (٢٥ جمادى الأولى سنة ١٣٤٧ هـ) . ولم تذكر الصحيفة اسمه .

يـا ساكـني الـدنيا انظـروا ... فـالليل عـاد لـكم نهـارا
فعـن البصـير ـ وإن نـأى ـ ... شمس الظهـيرة لا تـوارى
الترك قـد أضحـوا عَـلىٰ ... أكبـاد أهـل الـدين نـارا
ملأت فضـائـح زيغـهم ... أحيـاء أهـل الأرض عـارا
في غـيهم يتخبطـو ... ن . شبابُـهم وكـذا العـذارى
وبـفسقـهم يتقلبـو ... ن . كـأنهم صرعـى سكارى
لا مسلمـون ولا يهـو ... د فمنهمـا انسلخـوا جهـارا
قـد حطمـوا كـل القيـو ... د فـلا مجـوس ولا نصـارى

وأنَّب شاعر آخر من شعراء « الفتح » الكماليين الذين أضاعوا المجد . ونبذوا الإيمان . وسلكوا طريق الفساد فقال : [1]

عفت المفاخر بـين ذاك الـوادي ... وطوى الـزمـان مـآثر الأجـداد
وتضعضعت قمم الكـرامة والنهى ... وتنـاثرت بحوادث وعـوادي
لم يبق إلا عصبـة مفتـونـة ... تـزجي ذرائعهـا بغـير رشاد
مـا بين مهـزلـة تمر . ونقمـة ... تسطو وهم في غفلـة وتمـادي
عبثوا بمـا يستنـه الإسلام بـل ... عبثوا . فبـاعوا مجـدهم بفساد
يرمون بـالإيمـان عـن أعطافهم ... فتصـير للشيطـان شرّ سنـاد

وأعلن الشاعر أنهم عصابة خذلان اشتروا الضلالة بالهدى . وقفوا أنفسهم على هدم الشريعة الإسلامية وأنى لهم ذلك . فقال :

هم عصبة الخذلان والفئة الـتي ... ختمت بياض جهـادها بسواد
وهم الألى اشتروا الضلالة بالهـدى ... فـتراجعوا بخسـارة وكسـاد
ما ثلّ نور الله مـن أفـواههم ... والله يـرفع نـوره بعمـاد
هم حاولوا طعن الشريعـة فانثنت ... طعنـاتهم لصـدورهم بسداد

(١) صحيفة الفتح : العدد ١٢١ . والشاعر هو يحيى محمد علي البكري .

ثم تهكم الشاعر على الكماليين . ونعتهم بالفَسَقة الفجرة الملحدين فقال :

يغدون في طول البلاد وعرضها ... يدعونها للفسق والإلحاد
في كلّ مجتمع وكلّ محلة ... يبدو خطيب بينهم ومنادي
جنحت بهم للمخزيات وساوسٌ ... سامتهم خبلاً وبئس الحادي
يجتاح مدكر ويكرم أخرق ... ويعز مهذار ويخذل هادي

وأكد الشاعر أن مصيرهم إلى الإخفاق . وأن الله لهم بالمرصاد فقال :

والحقّ أبلج لن يعاق بإفكهم ... والله للباغين بالمرصاد
ومعالم الفرقان يدعم أسّها ... ذود الحماة وصولة الآساد

ونشرت جريدة الفتح أيضاً قصيدة لشاعر أخفى اسمه عنوانها « دمعة على الخلافة » ومطلعها [1]

رحمة الله علينا أجمعين ... قد أضعنا الدين والدنيا معا

وقد لام الشاعر فيها الكماليين الذين خيبوا ظن المسلمين وأملهم . وتطاولوا على دينهم وسخروا منهم فقال :

قلب هل جاءتك أخبار الأُلى ... كنت ترجو لتصاريف الزمان
كنت ترجو أن يسيروا للعلا ... جاعلين الدين مصباح الأمان
إنهم يا قلب قد جاروا على ... ذلك الدين وساموه الهوان
خيبوا فيهم ظنون المسلمين ... بعد أن كانوا رجاء واسعا
هزئوا مِنْهُمُ في المستهزئين ... يا له من هُزُء ما أوجعا

وتوجه الشاعر إلى رجال العلم . وسألهم أن يخبروه عما في الإسلام من عيب حاربه الكماليون فقال :

يا رجال العلم . يا أهل التقى ... يا عباد الله . يا أهل العقول

(١) صحيفة الفتح : العدد ٨٦ (٩ رمضان سنة ١٣٤٦ هـ) .

إن خير القول قول صدقا ... نبئوني لست أدري ما أقول
هل بدين الله عيب يتقى ... فكذا يزعم حزب الأنضول
طلقوا الدنيا من الدين المبين ... فأتوا في الدين أمراً مفزعا
هدموا من ركنه العالي المتين ... يا له من حدث . ما أفظعا

ثم ولول الشاعر . وندب الخلافة التي ألغاها الأتراك فقال :

يا لقومي . يا لديني . ضربوا ... إمرة الإسلام في مقتلها
صيروها شعبتين انقلبوا ... يهدمون الأصل من معقلها
زعموها بدعة . قد كذبوا ... فرية منهم لا نقبلها
طردوا عنهم أمير المؤمنين ... لا عصيا لا ولا مبتدعا
ألغوا الإمرة لا مكترثين ... بكتاب الله أو ما شرعا

وختم القصيدة بدعوة الشعوب الإسلامية إلى المحافظة على شريعة الله والتمسك بكتابه ففيهما الفوز والنجاة فقال :

ويل نفسي ويل قومي مَنْ لنا ... ما أرى التعذيب إلا قد أتانا
عَالَمُ الإسلام أعياه الضَنَى ... داؤه الغرب خضوعا وافتنانا
إن نعد لله عوداً حسنا ... فسيُنْجينا كما أنجى سوانا
سنة الله مضت في الأولين ... لن ترى من دونها متسعا
قد تخلى الله عن أمر الذين ... صار دين الله فيهم ضائعا

وتطاول مصطفى كمال على بيوت الله فحول جامع أياصوفيا إلى مُتحف وتألم لذلك المسلمون وعبر الشعراء عن ألمهم فقال أحدهم : (١)

أيا صُفُيا على مأساتِكَ أَبْكي ... فقد بُدِّلتَ إيماناً بشرك
أشاطِرُكَ الأسى والدمع أيضاً ... فليس سواهما شيء يملكي
مُصابُكَ رغم ظاهرة التجافي ... مُصاب المسلمين بدون شك

(١) صحيفة الفتح : العدد ٤٣٥ (٢٤ ذي القعدة سنة ١٣٥٣ هـ) والشاعر هو محمد صادق عرنوس .

ثم تحسر الشاعر على صوت الحق الذي خرس ، ونور الإسلام الذي خبا . وبكى لما حلّ بهذا المسجد من فساد وفسق وفجور فقال :

أيا صوفيا بربك أين طيرٌ ... ترنّم فيكَ دَهراً فوق أيك
مآذنك التي هتفت قروناً ... لها قال الغواة اليوم قَدْكِ

وخاطب محمد صادق عرنوس المسجد بحزن وألم ، ودعاه إلى أن يندك على رؤوس زواره فقال :

فما لك لم تدك على رؤوس ... أتت لترى انقلابك شرَّ دك
أتت لا للصلاة كأمس لكن ... لرؤية منكر وشهود إفك
تساءل بعضهم دهشاً حزينا ... أشعبٌ سِيم هذا الضيم تركي ؟
أيا صوفيا أنيأس من هداه ... فننظمه « وأندلساً » بلك ؟

وترحم الشاعر على عهد الخلافة الذي اندرس وموطن العزة الذي انتُهك فقال :

سقى الله باسلامبول عهداً ... بنت فيه الخلافة أيّ ملك
وما زادت بها إلا عُلُوّاً ... ودَعْ تاريخها الفياض يحكي

ثم سخر الشاعر من ادعاء الكماليين بأن الخلافة عبء ثقيل وعقبة في طريق التقدم . وأن الدين سبب الضعف فقال :

ولم نر لادعائهمُ أساساً ... بأن طريقها كانت بهلك
وأن الدين أضعفهم فآلوا ... ليلتمسنّ قوتهم بترك
وذي الأمم التي شاءوا رضاها ... تقابلهم بسخرية وضحك

وبكى محمد حسن النجمي أياصوفيا وشكى الأمر لله تعالى فقال : [1]

قفا أيامها الغرّاء نبكي ... ونشكو الدهر عَسلَّ الله يشكي
وننـدب حظها شماء مما ... أفاء السيف قد منيت بدك

(١) صحيفة الفتح : العدد ٤٣٧ (٩ ذي الحجة سنة ١٣٥٣ هـ) .

ويعجب الشاعر من مصطفى كمال وصحبه الذين تنكروا لدين الله وشرعه فيقول :

أيشقى ديـــن أحمـد في بـــلاد ... عـــلى أكتـــافه نعمت بملـــــك
ويرغب عـــن هدايتـــه أنـــاس ... بهـــا عبروا البحار بغـــــير فلك
ضحكت وأدمعي تجـري . وبدع ... لعمري ضـــاحك بالـــدمع يبكي

هذا وجملة القول أن القوى المعادية للإسلام والمسلمين استطاعت بمعونة مصطفى كمال إسقاط الخلافة الإسلامية وتفتيت وَحْدة العالم الإسلامي وذلك بفصل الخلافة عن السلطة أولاً . ثم الإجهاز عليها نهائياً عام ١٣٤٣ هـ ـ ١٩٢٤ .

وبذلك استطاع النفوذ الاستعماري أن يحقق غاية أهدافه بالقضاء على وَحْدة المسلمين ، وتمزيق شملهم . والتهام ديارهم . ثم الحيلولة دون قيام أيّ اتحاد إسلامي على أيّ وجه من الوجوه .

* * *